الباب الخامس عشر

الناس فى المدح والذم

[الناس يمدحونك لما يظنون فيك ، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تعلمه منها] .

قلت : إذا مدحك الناس بشيء ليس هو موجودًا فيك ، فاعلم أن ذلك هواتف من الحق يهتفون بك ويحوشونك إلى الزيادة ، ويقولون لك : الخير أمامك ، فلا تقنع بذلك ، ولا تركن إلى ما هنالك ، بل ارجع على نفسك باللوم ، ولا يغرنك ثناء القوم فإنهم لا يعلمون منك إلا الصوان الظاهر ، وأنت تعلم من نفسك اللب الباطن .

قال بعضهم : من فرح بمدح الناس فقد مكن الشيطان من أن يدخل بطنه . وكان بعضهم يقول : اللهم اجعلنى خيرًا مما يظنون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واغفر لنا ما لايعلمون ، وإنما قلنا مدائح الناس هواتف الحق ، إذ ليس فى الوجود إلا الحق : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ)[١] .

فأهل الفهم عن الله يستمعون إلى الخطاب ، فإذا سمعوه مدحهم بشيء نظروا ، فإذا كان فيهم علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر ، وإن لم يجدوه فيهم علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام ، ولهذا لما سمع أبو حنيفة قومًا يمدحونه بقيام الليل كله وكان لا يقوم إلا نصفه جعل يقوم الليل كله .

وقد ذم الله قومًا أحبوا أن يمدحوا بما لم يفعلوا فقال :

(وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ)[٢] .

وقال المحاسبى رضى الله عنه : مثل الذى يفرح بمدح الباطل ، كمن يقال

---

(١) آل عمران : ١٩١ .   (٢) آل عمران : ١٨٨ .

له : العذرة التى تخرج من جوفك لها رائحة المسك وهو يفرح لذلك ويرضى بالسخرية به اهـ .

ثم إن ذمك لنفسك إذا توجه الخلق إليك بالمدح إنما هو حياء من ربك حيث ستر عيوبك وأظهر محاسنك ، وهو الذى نبه عليه بقوله :

[المؤمن إذا مدح استحيا من الله أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه] .

قلت : قد تقرر أن التحقيق ما هو إلا سابقة التوفيق . ومن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك ، فإذا أطلق الثناء عليك بشىء لا نسبة لك فيه وإنما أنت محل لظهوره فاستحى منه تعالى أن يثنى عليك بشىء تعلمه أنه من فعل غيرك ، أو لم يظهر عليك شىء منه أصلاً ،فإن مدحت بشىء زائد على ما ظهر فيك فاطلب منه القوة على المزيد (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)[1] .

ولا يضرك مدحك بما تفعل إن لم تقصد التعرض للمدح .

ففى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُؤْمِنُ ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : الَّذِى لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلأَ مَسَامِعَهُ مِمَّا يُحِبُّ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ فى جَوْفِ بَيْتٍ إِلَى سَبْعِينَ بَيْتًا عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بابٌ مِنْ حَدِيدٍ لَأَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ حَتَّى يَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِذَلِكَ وَيَزِيدُونَ ، قِيلَ : يَارَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَزِيدُونَ ؟ قَالَ : الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ مَا زَادَ فِى عَمَلِهِ » الحديث .

وفى حديث آخر : « قِيل : يَارَسُولَ اللهِ الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ خُفْيَةً ثُمَّ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِ فَيَفْرَحُ ، فقالَ عليه الصلاة والسلام : لَهُ الأَجْرُ مَرَّتَيْنِ : أَجْرُ الْعَمَلِ ، وَأَجْرُ الْفَرَحِ » .

فإن مدح بما ليسّ فيه واغتر بذلك فهو جاهل بربه ، كما أشار إليه بقوله :

[أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس] .

---

(١) هود : ١٠٧ .

قلت : اليقين الذى عنده هو علمه بمساويه وخفايا عيوبه ، وما انطوت عليه سرائره من النقائص والتقصير ، وظن ما عند الناس هو ما يرون على ظاهره من الكمالات وأنوار الطاعات ، التى تصحبها العلل الباطنية ، والحظوظ النفسانية ، فيتوجهون إليه بالمدح والثناء ، فإذا قنع بذلك وفرح بما هنالك ، فهو أجهل الناس وأحمق الناس ، إذ قد قنع بعلم الخلق ، ولم يخف من مقت الحق ، والمطلوب من الفقير عكس هذا ، وهو أن ينقبض عند المدح وينبسط عند الذم حتى يستويا عنده ، هذا إن كان المادح من أهل الدين والخير ، وأما إن كان جاهلا أو فاسقًا فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به .

فقد روى عن بعض الحكماء أنه مدحه بعض العوام فبكى فقال له تلميذه أتبكى وقد مدحك ؟ فقال له : إنه لم يمدحنى حتى وافق بعض خلقى خلقه فلذلك بكيت .

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : تزكية الأشرار هجنة لك ، وحبهم لك عيب عليك .

وقيل لبعض الحكماء : إن العامة يثنون عليك ، فأظهر الوحشة من ذلك وقال : لعلهم رأوا منى شيئًا أعجبهم ، ولا خير فى شىء يعجبهم ويسوءنى اهـ .

فينبغى للفقير أن يخفى محاسنه وأعماله التى يمدح عليها ، ويظهر ما يسقط به من أعينهم مما هو مباح كما تقدم فى الخمول .

وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : فينبغى للفقير ألا يكون صيته أكبر من قدمه ، بل يكون قدمه أكبر من صيته ، وقدره أكبر من دعواه اهـ . فيكون جلالىّ الظاهر جمالىّ الباطن ، فكل ما تظهره على ظاهرك من الجلال يدخل فى باطنك قدره من الجمال ، وكل ما تظهره من الجمال يدخل قدره فى باطنك من الجلال ، فتزيين الظواهر يخرب البواطن ، وتخريب الظواهر يزين البواطن ، فبقدر ما تخرب فى الظاهر يكون عمارة فى الباطن ، وبقدر ما تعمر فى الظاهر يكون خرابًا فى الباطن ، ولله در شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه حيث قال فى شأن الجهال :

اتّفَقُوا عَلَى الدِّين تَرَكُوهُ تَعَانَدُوا فى المَالِ وَالكَسَاوِى
الثَّوْبَ مِنْ فَوْقٍ غَسَلُوهُ وَخَلَّوُا الْقَلْب خَاوِى

فإذا أظهرت الجلال وأخفيت الجمال ، ثم أطلق الثناء عليك الكبير المتعال ، بما لست له أهلا ، فأثن عليه بما هو أهله ، كما أبان ذلك بقوله :

[إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل ، فأثن عليه بما هو أهله] .

قلت : إذا أطلق الله تعالى الثناء عليك على ألسنة خلقه بما لا تعلمه من نفسك ولست بأهل له ، فأثن على الله بما هو أهله : أى بما يستحقه من التعظيم ، ليكون ذلك شكرًا لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك . وأيضًا فإنه هو الذى ستر منهم مساويك وأظهر لهم محاسنك ، ولو أظهر لهم ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك ، فإن العبد محل النقائص والحق تعالى محل الكمالات ، فكل ما ظهر عليك من الكمالات فإنما هى رشحة من كمالاته تعالى ، فالثناء فى الحقيقة إنما هو لله ، فإذا وقع عليك فرده أنت إلى أصله ، وفى الحقيقة ما وقع إلا فى أصله ، ولكن لما اختلف القصد اختلف الحكم .

أثنى على بعض السادات وهو ساكت ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : وما على من ذلك ولست أغلظ فى نفسى بل لست فى البين ، والمجرى والمنشى هو الله تعالى اهـ . هذه حالة أهل الجمع .

وكان بعض السادات يستعمل الفرق إذا سمع الثناء عليه ألقى على رأسه التراب فى خلوته .

فالناس فى حالة المدح والذم على ثلاثة أقسام : قسم يفرحون بالمدح ويكرهون الذم ، لأن نفوسهم غالبة عليهم ، ولا شك أنها تفرح بالعز والرفعة وتنقبض بالذم والضعة وهم العوام الغافلون .

وقسم يكرهون المدح ويحبون الذم ، لأنهم فى مجاهدة نفوسهم ، فكل ما يؤلمها ويقتلها أقبلوا عليه ، وكل ما يحييها ويقويها فروا منه ، وهم العباد والزهاد والسائرون من المريدين .

وقسم يفرحون بالمدح لشهوده من مولاهم ، وينقبضون من الذم لشهودهم جلالَ من تولاهم وهم العارفون .

وقد أشار إلى القسم الثانى والثالث بقوله :

[الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق ، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق] .

قلت : أما العباد والزهاد ، فلأنهم محجوبون برؤية الخلق عن شهود الحق . فإذا مدحوا شهدوا ذلك من الخلق ، وحجبوا عن الجمع بالفرق ، فانقبضوا وخافوا على نفوسهم أن تغتر بذلك أو تقف هنالك ، وهم عاملون على ما تموت به نفوسهم وتحيا به قلوبهم ، ولا شك أن المدح لها فيه حظ وافر ، فربما تميل إلى ذلك فتعتقد المزية على الغير ، فيوجب لها التكبر والرضا وهما أصل كل معصية .

وأما الذم فلا حظ لها فيه ، وإنما فيه موتها وفى موتها حياتها ، فلذلك إذا مدحوا انقبضوا ، وإذا ذموا انبسطوا ، وسكت عنه الشيخ ، وكأنه يؤخذ بالمفهوم .

وأما العارفون الواصلون ، فلأنهم فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ، غائبون عن الخلق بشهود الملك الحق ، فإذا أثنى عليهم رأوا ألسنة الخلق أقلام الحق ، وشهدوا الجمع فى عين الفرق ، ففرحوا بمدح مولاهم ، وانبسطوا عند من تولاهم ، فيزدادون له حبًّا وشوقًا ، ويفنون فيه شغفًا وعشقًا ، وفى مثل هؤلاء ورد الحديث : « إِذَا مُدِحَ الْمُؤْمِنُ رَبَا الإِيمَانُ فى قَلْبِهِ رَبْوَةً » .

وإذا ذموا انقبصوا سكونًا تحت قهرية الحق ، وأدبًا مع جلاله ، وليس فى هذا الانقباض دليل على كراهية الذم من حيث نسبته للخلق ، لأنهم يرون الخلق مصرفين بقدرة الحق ، وعلامة ذلك أنهم يسمحون لمن أجرى ذلك عليه بل يتعطفون عليه ، ويتوددون بالمحبة إليه كما قال الشاعر :

رُبَّ رَامٍ لى بِأَحْجَارِ الأَذَى
لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْعَطْفِ عَلَيْهِ
فَعَسَى يَطَّلِعُ اللهُ عَلَى
فَرَحِ الْقَوْمِ فَيُدْنِينِي إِلَيْهِ

وفى تعبيرآخر : الناس فى المدح والذم على أربعة أقسام ، عوام جهال ،

وعباد زهاد ، ومريدون سالكون ، وعارفون واصلون .

فأما العوام فنفوسهم غالبة عليهم ، ودائرة الحس محيطة بهم ، محط نظرهم الخلق ، غافلون عن طلب الحق ، إذا مدحوا وأقبل عليهم الخلق فرحوا وبطروا لنيل مرادهم وتحصيل أغراضهم ، والنفس الأمارة مجبولة على الإمارة ، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق انقبضوا وحزنوا لفوات ما أملوا ، فهؤلاء قلوبهم خربة من النور .

وأما العباد والزهاد : فهم مجتهدون فى العبادة ، فارون من الخلق ، طالبون رضا الحق ، مستوحشون من الناس ، تحققوا منهم الإياس ، فإذا أقبلوا عليهم بالمدح والثناء انقبضوا وخافوا أن يشغلوهم عما هم فيه ، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق فرحوا وانبسطوا لتفرغهم حينئذ للعبادة وإقبالهم على ما هم عليه من المجاهدة .

وأما المريدون السالكون : فهم عاملون على قتل نفوسهم وحياة قلوبهم ، فإذا ذموا وأدبر الخلق عنهم فرحوا لما فى ذلك من موت نفوسهم وحياة قلوبهم ، وإذا مدحوا انقبضوا خوفًا على قوة نفوسهم وضعف قلوبهم ؛ إذ فى موت النفس حياة القلوب ، وفى حياة القلوب موت النفوس .

وأما العارفون : فقد ظفروا بنفوسهم ، ووصلوا إلى شهود معبودهم ، فهم يستأنسون بكل شىء ، لمعرفتهم فى كل شىء ، يأخذون النصيب من كل شىء ويفهمون عن الله فى كل شىء ، فإذا مدحوا انبسطوا بالله لشهودهم المدح من الله وإلى الله ، ولا شىء فى الكون سواه ، وليس أحد أحب إليه المدح من الله كما فى الحديث ، وإذا ذموا انقبضوا تأدبًا مع جلال الله أو شفقة على عباد الله : « مَنْ عَادَى لى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحرْبِ » .

فصار بسطهم بالله وقبضهم بالله واستغنوا به عما سواه ، وبهذا المعنى وهو الفناء عن النفوس صح مدحهم لأنفسهم ، تحدثًا بما أنعم الله عليهم ، كالشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، والشاذلى والمرسى ، والشيخ زروق وأشباههم رضى الله عنهم وذلك مشهور عنهم نظمًا ونثرًا ، ومن أجل ذلك أيضًا أقروا من مدحهم ، وأظهروا الانبساط عند مدحهم . وللمؤلف رحمه الله قصائد

فى مدح شيخه أبى العباس ، وكان يقول له : أيدك الله بروح القدس كما كان يقول عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت رضى الله عنه حين يمدحه عليه الصلاة والسلام .

ومدح الشيوخ من أعظم القربات وأقرب الوسائل إلى الوصول ، إذ هم باب الله الأعظم ، ويد الله الآخذة بيد الداخلين إلى الحضرة ، فمن مدحهم فقد مدح الله : (إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله)[1] .

ومن ذمهم فقد ذم الله ، وكذلك مدح الرسول صلى الله عليه وسلم هو باب عظيم فى الوصول إلى حضرة الكريم .

فإن قلت : قوله عليه الصلاة والسلام :

« احْثوا التُّرَابَ فى أَوْجُهِ المادِحِينَ » .

يقتضى العموم فيصدق بمدح العارفين وغيرهم .

قلت : هو محمول على المدح بالكذب على وجه الطمع ، كما يقع للملوك وأرباب الأموال طمعًا فيما عندهم ، أو يحمل على من كان باقيًا مع نفسه خائفًا عليها كالعباد والزهاد . فإذا مدحهم أحد فينبغى أن يزجروه ويحثوا فى وجهه التراب . قيل حقيقة ، وقيل : كناية عن الخيبة والرد والنهى والزجر .

وأما العارفون المتحققون فقد عرفوا الممدوح ، وغابوا عن شهود الواسطة فى المادح والممدوح ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم آمين .

ثم من علامة الكمال ، تحقيق الاعتدال ، واستواء الأحوال ، فى تمانية خصال : المدح والذم ، والعز والذل ، والقبض والبسط ، والمنع والعطاء ، وقد تقدم بعضها ، وأشار إلى الأخيرتين بقوله :

[متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء ، وإذا منعت قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك ، وعدم صدقك فى عبوديتك] .

قلت : الطفولية والتطفل هو الدخول فى قوم وليس منهم ولم يستأذنهم .

والطفيلى : هو الذى يأتى للوليمة من غير دعوة ، وهو منسوب إلى رجل من

---

(١) الفتح : ١٠ .

أهل الكوفة من بنى عبد الله بن غطفان كان يقال له طفيل الأعراس : كان يأتى إلى الولائم من غير أن يدعى إليها : فشبه المؤلف به من دخل مع القوم ولم يتحقق بما تحققوا به من استواء الأحوال ، فإذا كنت أيها الفقير إذا أعطيت حظوظك ومنالك واتصلت بعوائدك وهواك ، من الغنى والعز والجاه ، والبسط والصحة والعافية ، وغير ذلك من الحظوظ والشهوات انبسطت وفرحت : وإذا منعت من حظوظك وشهواتك ، وأبدلك الغنى بالفقر ، والعز بالذل ، والجاه بالخمول ، والبسط بالقبض ، والصحة بالمرض ، والعافية بالبلية ، انقبضت وجزعت ، فاستدل بذلك على ثبوت تطفلك على كلامهم ، ولا نسبة لك من مقامهم ، وإنما أنت طفيلى الأعراس ، مازلت فى غفلة النعاس ، واستدل بذلك أيضًا على عدم صدقك فى عبوديتك ، إذ الصدق فى العبودية يقتضى استواء النعمة والبلية ، كما قال الشاعر :

أَحِبَّاىَ أَنْتُمْ أَحْسَنَ الدَّهْرُ أَمْ أَسَا
فَكونُوا كما شِئْتُم أَنَا ذلِـكَ الْخِلُّ

قال أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه : لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء : فى المنع ، والعطا ، والعز ، والذل اهـ .

فإذا كان الفقير يتضعضع عند الجلال ، وينهزم عند حملة الأبطال ، فاعلم أنه ضعيف الحال ، متطفل على مقامات الرجال .

قال فى التنوير : وقد ابتلى الله بحكمته ووجود منته الفقراء الذين ليسوا بصادقين ، بإظهار ما كتموا من الرغبة ، وأسرّوا من الشهوة ، فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم ، ملائمين لهم ، موافقين لهم على ملذوذاتهم ، مدفوعين على أبوابهم ، فترى الواحد منهم يتزين كما تتزين العروس ، معتنون بإصلاح ظواهرهم ، غافلون عن إصلاح سرائرهم ، ولقد وسمهم الحق بسمة كشف بها عوارهم وأظهر أخبارهم ، فبعد أن كانت نسبته أن لو صدق مع الله أن يقال فيه عبد الكبير ، فخرج من هذه النسبة لعدم صدقه فصار يقال له شيخ الأمير أولئك الكاذبون على الله ، الصادون العباد عن صحبة أولياء الله ، لأن ما يشهده العموم منهم يسحبونه على كل منتسب لهم ، صادق وغير صادق ، فهم

حجب أهل التحقيق ، وسحب شموس أهل التوفيق ، ضربوا طبولهم ، ونشروا أعلامهم ، ولبسوا دروعهم ، فإذا وقعت الحملة ولّوا على أعقابهم ناكصين ، ألسنتهم منطلقة بالدعوى وقلوبهم خاوية من التقوى ، ألم يسمعوا قوله تعالى :

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ)[1] .

أترى إذا سأل الصادقين عن صدقهم ، أيترك المدعين من غير سؤال ؟ ألم يسمعوا قوله سبحانه :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] .

فهم فى الظاهر فى زى الصادقين ، وعملهم عمل المعرضين ، كما قال القائل :

أَمَّا الخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ ... وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا
لَا وَالذِى حَجَّتْ قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... مُسْتَقْبِلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا
مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ ... إِلَّا بَكَيْتُ أَحِبَّتِي بِفِنَائِهَا

هذا آخر الباب الخامس عشر .

وحاصلها : آداب المريد فى المدح والذم ، ومرجعها إلى خمسة :

الأول : ذم النفس عند مدحها بما ليس فيها . الثانى : استحياؤه من الله أن يمدح بوصف لا يشهده من نفسه . الثالث : أن يرجع إلى يقين ما عنده فيعوّل عليه ، ولا يغتر بظن ما عند الناس فيعتمد عليه . الرابع : أن يكثر من الحمد والشكر لمولاه ، حيث ستر عيوبه ، وأظهر توفيقه وهداه . الخامس : أن يكون معتدل الحال سليم القلب ، فلا يحزن عند الذم ولا يفرح عند المدح .

قال بعض العارفين : إذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت : فأنت والله بئس الرجل اهـ .

وجاء رجل إلى شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه فجعل يمدحه فى وجهه ، فقال له : ياهذا لا تغرنى بقولك ، أنا أعرف نفسى حين أكون أفضل

---

(١) الأحزاب : ٨ .
(٢) التوبة : ١٠٥ .

الوجود أو أقل الوجود . فالوقت الذى أكون فيه ذاكرًا لربى أنا أفضل الوجود ، والوقت الذى لا أذكر الله فيه أنا أقل الوجود أو كلام هذا معناه ، لكن هذا الأدب الخامس يختلف باختلاف الأحوال .

فالعباد يغلبون حب الذم على المدح ، والعارفون يغلبون حب المدح على الذم ، أو يعتدلون كما يعتدلون فى حال المنع والعطاء ، والقبض والبسط ، والذل والعز ، والفقر والغنى وغير ذلك من اختلاف الآثار ، وتنقلات الأطوار ، ومن جملة ذلك الخوف والرجاء بحيث إذا صدرت منهم طاعة لا يزيد رجاؤهم ، وإذا وقعت منهم زلة لا يعظم خوفهم ولا تنقص استقامتهم ، كما أشار إلى ذلك فى أول الباب السادس عشر بقوله رضى الله عنه :